ألفاظ الزمان والمكان في شعر قبيلة بني عُقَيل في الجاهلية والإسلام حتى نهاية العصر الأموي

غسان عباس سلمان

أ. م. د. علي ذياب محي العبادي

الملخص

يتناول هذا البحث ألفاظ الزمان والمكان في قبيلة بني عُقَيل في العصر الجاهلي والإسلامي حتى نهاية العصر الأموي، والألفاظ هي من اللبنات الأساسية التي تكون النص الشعري، فيستعين بها الشاعر في نقل ما يريد إيصاله إلى المتلقي، ولأهميتها، قد لقيت الألفاظ الشعرية كثيرًا من العناية والاهتمام من قبل النقاد القدماء والمحدثين، أمثال بشر بن المعتمر(ت ٢١٠هـ)، و الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) و ابن قتيبة(ت٢٧٦هـ) وابن طباطبا العلوي(ت ٣٢٢هـ)، وابن رشيق القيرواني، وابن سنان الخفاجي(ت٤٦٦هـ)، والجرجاني (ت٤٧١هـ) الذي وضع نظرية النظم، فكانوا يولونها أهمية كبيرة ووضعوا لها مجموعة من الشروط، وان توظيف الألفاظ يتباين من شاعر إلى أخر، فتحدث شعراء بني عُقَيل عن الزمان وماذا يعني، أهو وقت يمضي؟ أم يترك أثرًا في نفس الشاعر العُقَيلي، وكذلك تحدثوا عن ألفاظ المواضع التي استوطنوها أو مروا بها في حروبهم أو في أيامهم الاعتيادية، فشكلت ألفاظ الزمان والمكان ظاهرةً بارزةً لدى شعراء قبيلة بني عُقَيل.

This research deals with the words of time and place in the tribe of Bani Aqeel in the pre-Islamic and Islamic era until the end of the Umayyad era. By ancient and modern critics, such as Bishr ibn al-Mu'tamir (died 210 AH), Al-Jahiz (d. 255 AH), Ibn Qutayba (d. 276 AH), Ibn Tabataba Al-Alawite (died 322 AH), Ibn Sinan Al-Khafaji (d. 466 AH), and Al-Jarjani (d. 471) Who put the theory of systems, they attached great importance to it and put a set of conditions to it, and that the use of words varies from one poet to another, so the poets of Bani Aqeel spoke about time and what does it mean, is it time that passes? Or does he leave a trace in the soul of the poet Al-Aqili, and they also talked about the words of the places they settled or passed through in their wars or in their usual days, so the words of time and place formed a prominent phenomenon in the poetry of the Bani Aqeel tribe.

الكلمات المفتاحية :

الألفاظ، الزمان، المكان، بني عُقَيل

مدخل

وتُعد الألفاظ من اللبنات الأساسية في لغة الشعر، وهي أداة للتواصل في اللغة، وهي مادة الشاعر الأساسية التي يتكون منها العمل الشعري؛ ولأهميتها قد لقيت الألفاظ الشعرية من المنظور النقدي قديما وحديثًا كثيرًا من العناية والاهتمام.

ويُعد بشر بن المعتمر(ت٢١٠هـ) من أوائل من بَحثَ في قضية اللفظ والمعنى في صياغة الكلام قائلًا: " ومن أراغ معنى كريمًا فليلتمس لفظًا كريمًا فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف"[1]، أما الجاحظ (ت٢٥٥هـ) فتحدث عن قضية اللفظ والمعنى إذ قال:" والمعاني مطروحة في الطريق يعرفها العجمي والعربي، والبدوي والقروي، والمدني إنما الشأن في إقامة الوزن، وتخير اللفظ وسهولة المخرج، وكثرة الماء،

وصحَّة الطّبع، وجودة السّبك، فإنما الشعر صناعة، وضرب من النسيج، وجنس من التصوير"، وهذا القول يدل على أنَّ المعاني يمتلكها كل إنسان، ولكنه يعبر عنها بألفاظه التي تناسب مدى وعيه وفهمه وثقافته، أما الألفاظ وخصوصًا في الشعر فعلى الشاعر أن يتخير ألفاظه التي وصفها الجاحظ بصحّة الطبع وجودة السبك وكثرة الماء"(٢)، فظن النقاد في بداية الأمر أن الجاحظ من أنصار اللفظ على المعنى، ولكن في الحقيقة أن الجاحظ هو من أنصار الألفاظ والمعاني معًا(٣).

كانت لقبيلة بني عُقَيل منزلة كبيرة بين القبائل العربية في الجاهلية والإسلام، إذ كانت جزءاً من منظومة ذلك المجتمع، وما خاضته من حروب مستمرة أما مع جيرانها أو مع القبائل البعيدة الأخرى، والذي يعنينا في هذه الدراسة هو عُقَيل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر بن هوازن بن منصور بن عكرمة بن خصفة بن قيس بن عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان، فهم مضريون عدنانيون(٤)، وولد عُقَيل بن كعب هم" ربيعة، عامر، عبادة، عوف، معاوية، عبد الله، عمرو"(٥)، وقبيلة عُقَيل من القبائل القيسية المشهورة في الجاهلية والإسلام فهي أحد قبائل كعب، وكعب قبيلة عامرية، وعُقَيل قبيلة كثيرة العدد، وأن عددها يفي جميع عدد مضر(٦)، وسكنت عُقَيل في وسط شبه الجزيرة العربية، ثم رحل الكثير منهم بعد دخولهم في الإسلام إلى بلاد الشام والعراق(٧)، وكانت لهم حروب كثيرة مع القبائل الأخرى التي تسكن بلاد شبه الجزيرة العربية ومن هذه الحروب يوم النخيل، ويوم شراحيل(٨).

ألفاظ الزمان

تحتل ألفاظ الزمان في الأدب العربي عامة، وفي الأدب القديم الجاهلي والإسلامي خاصة مساحةً واسعة ومتميزًا؛ نظرًا لكثرة الحوادث والحروب والأيام التي كانت تحدث آنذاك، فللزمان صلة وثيقة ومترابطة بحياة الإنسان، ففي بعض الأحيان نجد الإنسان غير متصالحٍ مع أحداث الزمن فهو يرفض جميع أشكال الواقع عندما يكون هذا الواقع غير ملبٍّ لما يصبو إليه فيثور عليه؛ لذلك تعددت ألفاظ الزمان ومرادفاته في الشعر العربي، " فقد ارتبط الزمان دائمًا بالوجود، ونحن لا نفكر في أحدهما دون أن نفكر في الآخر "(٩)، فليس هنالك فاصل بينهما و" تعد ظاهرة الزمن في اللغة الطبيعية من الظواهر المعقدة، إذ تدخل في تكوين الزمن مؤشرات نحوية لها طبيعة متباينة"(١٠).

وأن الشعراء" على اختلاف نظراتهم يخشون الزمن، يخشونه حين يبتهجون بشبابهم وأمجادهم؛ لأنه يجري سريعًا فلا يدعهم ناعمين بحياتهم، ويخشونه حين يشقون بالشيخوخة أو المصائب؛ لأنه يتحرك بطيئًا حتى كأنه ساكن لا يتحرك "(١١)، وإنّ الزمن في العمل الإبداعي يمثل نوع من تصالح الشاعر مع ذاته إذا كان فعلًا إنَّ الإنسان هو الزمن، ٠٠٠ وبذلك يتحول الزمن في العملية الإبداعية إلى أداة طيِّعة تسهم في جماليات النص الأدبي لتسموَ به إلى مرتبة الرفعة والخلود(١٢).

وقد تعددت ألفاظ الزمان ومرادفاته في الشعر الجاهلي عامة وفي شعر قبيلة بني عُقَيل خاصة، وكانت أحد الروافد المهمة للمعجم الشعري لدى شعراء القبيلة الذي استطاع الشعراء من خلالها التعبير عن كوامنهم، وجاءت ألفاظ الزمان في مختلف المعاني والأغراض الشعرية بضمن الأطر الزمنية المختلفة، ومنها:(يوم، زمان، حول، شهور، ساعة، حين، صباح، مساء، الليل، نهار، عام، المغرب، صيف، العشاء، السحر، الضحى، دهر، غد) فمن ألفاظ الزمان التي جاءت في شعر توبة بن الحمير(١٣):

(من الطويل)

أليس يضير العينَ أنْ تكثرَ البُكا ... ويمنعَ منها نومُها وسُرورها

أرى اليومَ يأتي دونَ ليلى كأنما ... أتى دونَ ليلى حِجةٌ وشهورُها

لكلِّ لقاءٍ نلتقيهِ بشاشةٌ ... وإنْ كانَ حولاً كلُّ يومٍ أزورها

فالشاعر في هذه الأبيات يبث شكوى أثر فراق ليلى الأخيلة علية، فهو يمنع عن نفسهِ النوم والسرور، ويوظف مجموعة من ألفاظ الزمان بصورة مباشرة وغير مباشرة، حيث يذكر (اليوم، شهور، حولاً،

حجه) وهي ألفاظ الزمان مباشرة، ويحاول الشاعر في البيت الثاني أن يبّين للمتلقين من خلال الصورة التشبيهية أن اليوم في فراق ليلى كأنه سنة، أما قرب ليلى فيجلب البشاشة والسرور، وفي لقائها اليوم وإن صار حولًا في طوله فإنه يقصر عليه، أما الألفاظ غير المباشرة التي ذكرها الشاعر فهي(نومها، أزورها، سرورها) فإن للنوم والزيارة وللسرور وقت محدد، فهي ترتبط بالزمان ولكن بطريقة غير مباشرة، واستطاع الشاعر توظيفها ليعبر عن أثر الشوق والفراق. وقول بعض بني عُـقَيل[١٤]:

(من الوافر)

لَـقَدْ عَلِمَتْ حَنِيفَةُ يومَ لاقتْ عُـقَـيلاً أنَّـهَـا عَـرَبٌ لُبَـابُ

كَأنَّ البَيْضَ حينَ يَقعْنَ فيهِ وإنْ يَبسَتْ قَوانِسُهُ رطَابُ

يفتخر الشاعر بالنسب و بالقبيلة وقوتها، في الحرب التي وقعت بين قبائل كعب وفيهم عُقَيل وبني حنيفة، فالشاعر الذي يفخر بقوة قبيلة إنما يُذكر الآخرين بانتمائه إلى تلك القوة التي ترهب الآخرين، ويوظف الشاعر لفظتي (يوم، حين) ففي البيت الأول يفتخر بيوم لاقت عُقَيل تلك القبائل وانتصرت عليها، فكلمة يوم تدل على معركة أو غزوة، ولكن لم يذكر الشاعر اسم تلك المعركة فقد اكتفى بلفظة يوم، ويبدو أن الشاعر كان يقصد يوم الفلج، وفي البيت الثاني يذكر لفظة (حين) ويوظفها في صورة تشبيهية فهو يشبه (البيض) وهي الخُوذة من الحديد بـ(رطاب) وهذا دليل على ضعف القوم في مواجهة خصمهم وهشاشتهم وعدم قدرتهم على القتال، فشبههم الشاعر بـ(رطاب) والتشبيه مجمل فالشاعر لم يذكر الركن الرابع من أركان التشبيه وهو وجه الشبه. وقول أبو حرب الأعلم بن خويلد العُقِيلي[١٥]:

(من الرجز)

نحن الذين صبحوا صَبَاحا

يوم النُّخَيل غارَةً مِلْحَاحَا

نحن قَتَلْنَا المَلِكَ الجَحْجَاحَا

نحن بنو خُوَيلدٍ صُرَاحَا

ولم نَدَعْ لِسَارحٍ مُرَاحَا

لا كَذِبَ اليومَ ولَا مُزَاحَا

ويبدأ الشاعر أرجوزته بـ(نحن) فهو يفخر فخر جماعيًا في نسبهِ وقبيلتهِ ويستمر في سرد افتخاره، وكما يبدو أن الفخر بالنسب يلي الفخر بالشجاعة، فالشاعر يحمس المقاتلين في المعركة مما يدفعهم إلى كسبها والانتصار على الأعداء، ويوظف الشاعر ألفاظ الزمان (صبحوا، صباحا، اليوم) في أرجوزته ويذكر يوم النخيل الذي حدثت فيه الواقعة حيث أدرك بنو عُقَيل جيش مذحج في وادي النخيل وانتصروا عليه، واستردوا ما أخذ منهم، والأعلم له مكانة الذي لا يملؤه غيره في غارات قومه على أعدائهم من حيث كونه فارسًا وشاعرًا. ويقول عبد الله بن الحمير العُقَيلي [١٦]:

(من الوافر)

كَأنَّ الهَمَّ ليسَ يُريدُ غَيري ولو أمسَى له نَبَطٌ ورُومُ

عَلَام تقومُ عاذلَتِي تَلُومُ تُؤَرّقُنِي وما انْجَابَ الصرَّيمُ

فَقُلْتُ لها رويدًا كَيْ تَجَلّى غَوَاشِي النَّومِ واللّيْلُ البَهِيمُ

فَأَشْعِر لَيْلَةَ أرَقًا وَقُرًّا يُسَهَّرهُ كَمَا أرقَ السَّلِيمُ

النص من قصيدة طويلة تبلغ تسعة عشره بيتًا يعتذر فيها الشاعر عن تقصيره في المعركة التي قتل فيها أخوه توبة، وقطعت رجلهُ وتركهُ قومهُ في المعركة لا يستطيع النهوض إلا بعناء ومشقة، فاجتمعت عليه مصيبتان: قتل أخيه وقطع رجله، وتتوشح هذه الأبيات بمجموعة من ألفاظ الزمان(أمسى، الصريم، الليل، ليلة) وظفها الشاعر؛ لغرض التعبير عن ألامه وشكوى وهمومه التي لا تكاد أن تفارقه من كلام الناس الشامتين به في قتل أخية وقطع رجله، وينتقل في البيت الأخير إلى غرض الوصف بعد الاعتذار، فهو يصف حمارًا وحشي جاءه الرعد والبرق والمطر في ليلة من ليالي الشتاء الباردة ولم يتمكن من البحث على ملجأ يقضي فيه ليلته، فقضاها واقفًا يطأطىء رأسه حينًا ويرفعه أحيانًا ويشبهه بالشخص الذي لدغته الحية. وقول عُنَي بن مالك العُقَيلي في رثاء رفيقه ابن أوس [١٧] :

(من الطويل)

يُعَزَّى المُعَزَّى سُاعَةً ثُمَّ يَنْكَفِى وفي النَّفْس حَاجَاتٌ لَهُنَّ غَلِيلُ

وَلَمْ نُلْقِ رَحْلَينا مَعًا بتَنُوفةٍ وَ لَمْ نَرْمِ جَوزَ الليلِ حِينَ يَمِيلُ

ففي البيت الأول يصور الشاعر لوعته وحزنه على صديقه ورفيق دربه في الأسفار، وفي البيت الثاني يسترجع الشاعر ذكريات الماضي مع صديقه في الأسفار، ويستعمل الشاعر في رثاءه لصديقة مجموعة من ألفظ الزمان ليعبر عن شدّة حزنه وعظم المصيبة التي ألمّت به وتأثره على رفيقه وهي (ساعة، الليل، حين) فجعل هذه الألفاظ طوع رغبته في رثائه صديقه ولكل لفظة من هذه الألفاظ معنى خاص فلفظة الليل مثل تدل على الحزن والهموم والوحشة والخوف الشديد، ولفظة الساعة التي لم ترد بكثرة عنده الشعراء العُقَيلين. ويقول ايضًا[١٨] :

(من الوافر)

فَجَاؤُونا بهم سَكَرٌ علينَا فأجْلَى اليومُ والسّكْرَانُ صَاح

دَفَعْنَا الخَيْلَ شَائِلَةً عليهم وقُلْنَا بالضُّحَى فيحِي فَيَاخ

هذا البيت هو جزء من قصيدة قالها الشاعر في يوم الفلج وهو يصور مجيء بني حنيفة لقتال بني عقُيل عندما جاؤوا طامعين فيهم فكان طمعهم كالسكر، وكان بهم غضب على بني عُقَيل وعندما هزمهم قوم الشاعر في ذلك اليوم صحوا من سكرتهم، وفي البيت الثاني يصف حال الخيل عندما هجمت على الأعداء بأنها رافعة أذنابها وقد اتسعت غارة هذه الخيل على الأعداء، وقد قرن الشاعر هذه الهجمةٌ بوقت (الضحى) وتشكل هذه اللفظة دلالة مركزية في بناء البيت؛ لأن وقت الضحى هو محدد يبدأ بعد طلوع الشمس إلى الظهر، ويعد هذا الوقت كافيًا للهجوم على الأعداء والقضاء عليهم.

وقول الشاعرة ليلى الأخيلية [١٩]:

(من الطويل)

ومن كان بما يُحث الدهُر جازعاً فلابدَّ يوماً أن يُرى وهو صابرُ

وليس لذي عيش عن الموت مقصْرٌ وليس على الأيام والدهرُ غابرُ

ولا الحيُّ مما يُحدث الدهرُ مُعْتَبٌ ولا الميتُ إن لم يصبر الحيُ ناشرُ

النص من قصيدة في رثاء حبيبها الشاعر توبة الحمير وفيه تحذير من الدهر ويدعو إلى الإقبال على الصبر والثبات عليه ويشتمل هذا الرثاء على النظر في المنية ومصير الإنسان وتقف الشاعرة عاجزة أمام الموت الذي خطف منها حبيبها وهي لا تملك سوى الصبر فهي تعيش صراع وفي ظل هذا الصراع توظف

مجموعة من الفاظ الزمان هي (الدهر، يوماً، الأيام) وتكثر الشاعرة من لفظة الدهر في هذا النص الرثائي؛ لربما من أجل الاتعاظ وأخذ العبرة من مصائب الدهر.

ألفاظ المكان

المكان هو من القواعد الأساسية التي ارتكز عليها الشعراء في إنشاء قصائدهم منذ العصر الجاهلي إلى يومنا هذا، وإن للمكان علاقة وثيق ومتجذرة بالشعر والشعراء وهو من أهم العناصر المهمة في تكوين النص الأدبي بصورة عامة والشعري بصورة خاصة؛ وذلك لأن المكان هو البيئة الطبيعية التي عاش في كنفها الشاعر بكل ما تشمل حيوان ونبات وجماد وجميع مظاهر السماء[٢٠].

علاقة الإنسان بالمكان " علاقة قديمة وراسخة في الذات البشرية وقد مثَّل المكان عنصرًا مهمًا بل أساسيًا من عناصر العمل الأدبي الذي يسعى بدوره إلى إبراز هوية ذلك المكان"[٢١]. وهذا الترابط فيما بينهما يقود إلى فهم المكان بشكل أوسع و" ليس المكان ذلك المعطى الخارجي المحايد الذي نعبره دون أن نأبه به وَإنما المكان (حياة) لا يحده الطول أو العرض فقط وإنما خاصية الاشتمال ...، الذين يدرسون الشخصية بمعزل عن المكان والزمان إنما يسلبونها شطرًا ذا خطورة معتبرة في تحديد سماتها"[٢٢]. ونجد حضورًا واسعًا للمكان في الشعر الجاهلي؛ وذلك لما له من ارتباط شديد في نفس الشاعر وصلة وثيقة "فالمكان هو الموضع الذي يولد فيه الإنسان، وهو الموضع الذي يستقر فيه، وهو الموضع الذي يعيش ويتطور فيه، إذ ينتقل من حال إلى آخر وما ينطبق على تطور حياة الإنسان الفرد ينطبق على تطور حياة الجماعات والأمم"[٢٣].

وفي شعر قبيلة بني عُقَيل وردة ألفاظ المكان متباينة بتباين الأجواء النفسية التي عاشوها، فاكتسبت تلك الألفاظ صبغة الانفعالات والمقاصد لديهم، و من هذه الألفاظ (الأجرعان، الأخشبان، أشْمُس، أَوْرَال، أوق، أيصر، برك، بيشة، تباله، البِين،، جبّان، جُرَاد، جمران، حَوْضىَ، خَزْبَة، الخنوقة، الدواسر، دَهْر، عسفان، معدن البرم، حايل، العراق) وكانت المدن حاضرةً في الشعر العُقَيلي وحرص الشعراء على التركيز عليها ومن هذه الألفاظ (مكة، يثرب، دمشق، نجد، الحجاز) ومن أمثلة ذلك قول بعض بني عُقَيل[٢٤]:

(من الطويل)

ولـو سُئِلَتْ عَنَّا حَنِيفةُ أخْبَرَتْ بمَا لَقِيَتْ مِنَّا بجُمْرَانَ صِيدُهَا

ذكر الشاعر لفظة (جمْرَانَ) وهو موضع مروا به بني(بني حنيفة) بعد هزيمتهم على يد بني عُقَيل، ليكن هذا المكان شاهد على الهزيمة والخذلان في موقعة النشاش، فانبرى الشاعر يذكر انتصارات وأمجاد وبطولات قومهِ، وكيف انتصروا على الأعداء في تلك الواقعة، وقول امرأة من بني عُقَيل[٢٥]:

(من الطويل)

خَلِيلَيَّ من سُكّان ماوانَ هَاجَنِي هَبُوبُ جَنُوب مـرُّهَـأ و انْتِسامُهَا

فَإنْ تَسْأَلَانِي مَا وَرائِي فَـإنَّنِي بمَنْـزِلَـةٍ أعْيَا الطَّبيبَ سَقَامُهَا

تفتتح الشاعرة نصها بمقدمة طللية وتبين من خلالها مدى شوقها وحنينها إلى الأصحاب وتستعمل لفظة المكان (ماوان) وهي لا تقصد ذلك المكان نفسه بل من سكن فيه، وورود ألفاظ المكان في شعر هي دلال تعلق الشاعرة بالشخوص القانطين في ذلك المكان ومالها من ذكريات معهم، والسبب الرئيسي لذكر هذا المكان هو الشوق والحنين، وقول الشاعر القحيف العُقَيلي في حروب قومه مع بني حنيفة[٢٦]:

(من الطويل)

فَمَنْ مُبْلِغٌ عنِّي قُرَيْشاً رسَالةً وأفْنَاء قيسٍ حيثُ سَارَتْ وحَلَّتِ

بأنَّا تَـلَاقينَـا حَنِيفَـةَ بـعـدَمَـا أغَـارَتْ على أهْلِ الحِمَى ثم ولّتِ

لَقَدْ نَزَلَتْ في معدِنِ البُرْمِ نَزْلَةً فَلَأيًا بِلَأْيٍ عن أضَـاخَ اسْتَقَلَّتِ

وكانت الحروب متواصلة بين بني عقُيَل وبني حنيفة، ويصور الشاعر المعركة التي حدثت بين قومه وبينهم وكيف غارت بني حنيفة عليهم في بداية الأمر ثم انهزمت ويذكر ألفاظ الأماكن(الحمى، معدن البرم، أضاخ) التي مره بها أو التي حدثت الوقائع بها فكل مكان له خاصية مميزةٌ عند الشاعر، وورود ألفاظ المكان عنده الشاعر هو دلالة على الافتخار بشجاعة القبيلة والإشادة بانتصاراتها وحروبها المتواصلة في الكثير من الأماكن التي كانت تقنط فيها، ويذكر في البيت الثالث يؤكد أن الأعداء (بني حنيفة) قد نزلوا في (معدن البرم) ولكن لم يستقلُ في هذا الموضع الأبعد مشقة جهد وعناء كبيرين. وقول زهير بن أحمد العُقَيلي[٢٧]:

(من الطويل)

يُشَامُ على يَبْرِينَ أوَّلُ شَيْمِـهِ وَأرْدَفَ أعْجَازًا بِرُكْبَـةَ رُكَّـدَا

يَمَـانٍ على نَـجْرَانَ أوَّلُ صوبَـهِ وَأيْسَرُهُ يُسْقِى بجَودٍ سَمَرْمَدَا

إذَا ما عَلَتْ أسْبَالُهُ وَضَحَ الحِمَى إلَـى ثُهْمَدٍ أرْسَى بهَا وتَزَيَّـدَا

النص من قصيدة يبلغ طولها ثلاثة وعشرون بيتًا قالها الشاعر في حق صاحبته تبدأ بمقدمة طللية ثم تتعدد أغراض القصيدة إلى أن يصل إلى غرض الوصف ويوصف الشاعر مظاهر الطبيعة وكيفية اتساع السحاب الممطرة في مناطق شبه الجزيرة العربية، ويوظف في هذا السياق مجموعة من ألفاظ المكان التي تذكرها المصادر العربية القديمة والتي تكاد تكون أغلبها غير معروفة في الوقت الحاضر بهذه المسميات وهي (يبرين، ركبة، نجران، سمرمد، الحمى، ثهمد) فكل مكان من هذه الأماكن يمثل جهة من حدود شبه الجزيرة العربية وبهذا يكون المطر قد هطل على معظم مناطق الجزيرة، فيبرين في الجنوب الشرقي من الجزيرة العربية وركبة في غرب الجزيرة ونجران في الجنوب الغربي وسمرمد في الشمال الغربي والحمى وثهمد في وسط نجد [٢٨].

(الطويل)

فَإنْ يَكُ عـارًا يَـوْمَ وَجّ أتَيْتُـهُ فِرَارى فَذَاكَ الجيشُ قد فرّ أجْمَعُ

يتضح مما سبق أن الشاعر يوصف الفرارة من المعركة وانطلاق الفرس بالفار في المعركة التي قتل فيها أخوه ويذكر الشاعر لفظة المكان (وج) واستحضار الشاعر لهذا المكان وتوظيفه في النص الشعري ما هو إلا محاولة منه لكي يبرهن أنه لم يهرب من المعركة وحده وإنما جميع الجيش قد فر، ومن الظلم بحقه أن يلحقه العار في ذلك اليوم، وقول الشاعر زهير بن أحمد العُقَيلي[٢٩]:

(من الطويل)

إذَا هِيَ حَلَّتْ بالنُّسُورِ وَوَاجَـهَتْ مـن النَّيرِ أعْلاَما قُرَانَي وَفُرَّدَا

وَأهْلِيَ بالمَطْلَى إلَى حَيْثُ أنْبَتَتْ مَحَانٍ من الصُّمَّان شِحًا وَعَرْقَدَا

هذه النص من قصيدة غزلية طويلة قالها الشاعر في حق صاحبته (سعدى) وقد تعددت موضوعات القصيدة حتى يصل إلى ذكر الأماكن التي يلتقي بها الحبيبة وكل ما مضى موعد يترجى منها موعدًا آخر، ويصف صاحبته بالمماطلة وعدم الوفاء بالوعد، نلحظ من خلال استقرائنا للنص أن النص قد توشح بطائفة من ألفاظ المكان(النسور، النير، المطلى، الصمان). وقال الضحاك العُقيلي [٣٠]:

(من الطويل)

أيَا سِدْرَتَي وَادِي نُـخَيلٍ عَلَيْكُمَـا وَإنْ لَـمْ تُـزَارَا نَـضْرَةٌ وَ سَـلَامُ

أَلمَّا نُسَلِّمْ أوْ نَـزُرْ أرْضَ واَسِطٍ فَكَيفَ بتَسلِيمٍ وَأنْتِ حَـرَام

أَلاَ حَبَّذَا الحَنْفَاءُ والحَاضِرُ الـذِي بِهِ مَحْضَرٌ من أهْـلِهَا ومُقَـامُ

ذكر الشاعر في هذا النص ثلاث أماكن وهي (وادي نخيل، واسط، والحنفاء) وهو يعبر عن شوقه وحنينه إليها فارتبطت هذه المواضع في هذا النص بحبه وحنينه وذكرياته، وإن الشوق والحنين إلى الأماكن هي فطرة فطرها الله سبحانه وتعالى عند العباد ولكن الشاعر من خلال أدواته الفنية يستطيع توظيفها في الشعر بطريقة أفضل من الإنسان العادي، ولعل من الأسباب التي تجعل الشاعر يلح على ذكر المواضع في الشعر؛ لأنها "جزء من نفسيته، وإذا هي مرتع ذكرياته ومجتلى خيالاته، ففي كل مكان ذكرى، ولكل جبل معنى، ولكل أرض مذاق وطعم، تبعًـا للأحداث التي امتزجت التي امتزجت بها أو كانت فوقها لذلك كان الشاعر يتسع لأرضه ويضم عليها قلبه على مثال ما يتسع لأحبته ويضم عليهم قلبه"[٣١].

وقال الشاعر أبو النباش العُقَيلي[٣٢]:

(من البسيط)

أهْـونْ عَلَيَّ بسَيَّـارٍ وَضَـغْوَتِـهِ إذَا جَعَـلْتُ صِرَارًا دُون سَيَّـار

يُسَائِلُ النَّاسَ هل أحْسَسْتُمُ جَلَبًا من نَحْوِ يَثْرِبَ أو من نَحْوِ أظْفَار

هذا النص الذي أورده الشاعر هو جزء من قصيدة قالها أبو النباش في حق تاجر في المدينة يدعى(سيارا) كان قد استدان منه ومطل به فحاول سيار القبض على الشاعر فهرب، ويذكر الشاعر فيها بعض ألفاظ المكان(صرار، يثرب، أظفار) التي حدثت فيها الواقعة ويقترب الشاعر من أسلوب السرد القصصي، فهو يحكي حادثة وقعت له بأسلوب سرد الأحداث التي جرت بينه وبين سيار في أبيات متلاحمة فيما بينها، وقال الشاعر عمرو بن المنتفق العُقَيلي[٣٣]:

(من الطويل)

تَهَادَى قُرَيشٌ في دِمَشْقَ لَطِيَمَتِي وَيُتْرَكُ أصْحَابي وَمَا ذَاكَ بالعَدْلِ

فَإنْ يُمْسِكِ الشَّيْخُ الدِّمَشْقِيُّ مَالَهُ فَلَسْتُ على الدُّنْيَا بِمُسْتَحْكِمِ العَقْلِ

ففي هذا النص يذكر الشاعر مدينة (دمشق) والتي كانت آنذاك عاصمة الدولة الإسلامية وكان معاوية بن أبي سفيان الخليفة فيها، ويشير الشاعر إلى الأعمال الجليلة التي كان يقوم عند ما كان عامل معاوية على ولاية الأهواز، فكان يرسل إلى دمشق الطيب والمتاع والثياب والأموال والذهب، وفي البيت الثاني يذكر لفظة (الشيخ الدمشقي) وهي كناية عن معاوية ابن أبي سفيان الذي قد عزله عن ولاية الأهواز على الرغم مما كان يقوم به من أعمال في الأهواز لصالح خدمة البيت الأموي. وقال شَبُّوح مولى المختار بن الخطاب الكليبي الخفاجي العُقَيلي[٣٤]:

(من الطويل)

نَظَرْتُ ومن دُونِي شَتِيرٌ ومُقْلَتِي يَجُمُّ مُوَارًا دَمْعُهَا وَيَفِيضُ

لِأٍ ونِسَ أظْعَانًا بِدَفّ شُتَيّرَ بَدَونَ لِعَينِي والنَّهَارُ غَضِيضُ

قَوَاصِدَ أطْرَافَ السّتَار لِغَايِرِ بَوَاكِرَ يَحْدُو سَرْبَهُنّ قَبِيضُ

اعتاد الشعراء أن تبدأ بعض قصائدهم بمقدمات طللية لجذب الانتباه لدى المتلقي، حيث يذكر الشاعر في هذا النص الأظعان وكيفية توديعها والنظرة الأخيرة لها، وفي ضوء هذا السياق يشير الشاعر إلى عدت

مواضع (شَتِيرٌ، شُتَيَّرٍ، الستار، غاير)، وهو يذرف الدموع على توديع الأظعان التي سارت عنه في أول النهار، وقال الشاعر عبد الله بن عاصم العُقَيلي[٣٥]:

(من الطويل)

فَـــوَ اللهِ لولا أنْ أكَـلَّـــمَ مَـــرْيَـمًـا بـذِي الأثْلِ ما عُجْنَا المَطِيَّ المُخَرَّمَـا

وكَيفَ اهْتَدَتْ تَسْرِي ومن دُونِ أهْلِهَا مَـهَـامِـــهٌ لـم يَـخْـلُقْ بهَـا اللهُ مَـعْلَـمَـا

ففي هذا الأبيات يتغزل الشاعر في طيف الحبيبة الزائر في المنام، ويتعجب من طيف حبيبته (مريم) الذي زاره في أرض بعيدة، وفي البيت الثاني يستفهم كيف اهتدى إليه ومن الذي أرشده وقطع هذا الصحراء الواسعة وفي هذا السياق ذكر الشاعر لفظة المكان(ذي الأثل) التي استعملها الشاعر في ذكر الحبيبة والشوق إليها.

الـنـتـائـج

بعد هذا الرحلة في رحاب شعر شعراء بني عُقَيل في العصر الجاهلي والإسلامي حتى نهاية العصر الأموي تجلت النتائج الأتية: أن الألفاظ من العناصر الأساسية في رسم الصورة الشعرية عندهم، وكان لألفاظ الزمان دور مهم في تكوين لغة شعر شعراء بني عُقَيل، وذلك لأنها عملت على توسيع لغتهم ورفدها وهي تستمد معانيها من السياق الذي تأتي فيه وشكلت محورًا أرتكز عليه البناء الشعري لشعراء هذه القبيلة، وقد غلب عليهم الخوف من الزمان؛ بسبب الحروب المستمرة التي تخوضها القبيلة مع القبائل الأخرى من أجل البقاء، وألفاظ المكان لدى شعراء بني عُقَيل كثيرة ومتنوعة تبعًا إلى امتداد المنازل التي استوطنوا بها والهجرات من مكان إلى آخر والتي قام بها بعض شعراء القبيلة وصاحبت أوج عطائهم الشعري.

الـهـوامـش

١ـ البيان والتبين:١٣٦/١.

٢ـ الحيوان:١٣١/٣.

٣ـ يُنظر: محاضرات في تاريخ النقد عند العرب:١٠٦.

٤ـ يُنظر: جمهرة النسب:١/ ٢٥٦، يُنظر: جمهرة انساب العرب:٤٥٥/٢، يُنظر: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب:٥٠٠/٢، يُنظر: صبح الأعشى:٣٤١/١، يُنظر: قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان:١٩٩.

٥ـ جمهرة انساب العرب:٢٩٠.

٦ـ يُنظر: نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب:٥٠٣/٢.

٧ـ يُنظر: دولة بني عُقَيل في الموصل:٤١.

٨ـ الأغاني:١٤/٥.

٩ـ الزمان في الفلسفة والعلم:٢٦.

١٠ـ دلالة الزمان في العربية، دراسة النسق للانفعال:١١.

١١ـ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام:١٤.

١٢ـ مفهوم الزمن في الفكر الأدب:٢.

١٣ـ ديوان توبة بن الحمير:٣٢. يُنظر:١٦٥/١.

١٤ـ الديوان:٢١/٢.

١٥ـ المصدر نفسه: ٥٢/٢.

١٦ـ المصدر نفسه:١٧٧/٢.

١٧ـ المصدر نفسه:١٥٠/٢.

١٨ـ المصدر نفسه: ٥٤/٢.

١٩ـ ديوان ليلى الأخيلة:٦٥. يُنظر: الديوان:١٧٢/١.

٢٠ـ يُنظر: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعرة، المقدمة:١.

٢١ـ صورة المكان الفنية في شعر أحمد السقاف:١٠.

٢٢ـ فلسفة المكان في الشعر العربي:.١٨.

٢٣ـ الانتماء القبلي في الشعر الجاهلي:١٩٢.

٢٤ـ الديوان:٦٧/٢.

٢٥ـ المصدر نفسه:١٨٠/٢.

٢٦ـ المصدر نفسه:٤٨/٢.

٢٧ـ المصدر نفسه:٧٤/٢ـ ٧٥.

٢٨ـ المصدر نفسه:٢٣٣/٢.

٢٩ـالمصدر نفسه:٧٤/٢.

٣٠ـ المصدر نفسه:١٧٥/٢.

٣١ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام:١٠٢.

٣٢ـ الديوان:٢٢٨/٢.

٣٣ـ المصدر نفسه:١٦٤/٢.

٣٤ـالمصدر نفسه:١١٤/٢.

٣٥ـ المصدر نفسه:١٨٧/٢.

المصادر والمراجع

١ـ الانتماء القبلي في الشعر الجاهلي، فاروق أحمد سليم، منشورات اتحاد الكتاب العر ب، د. ط، ١٩٩٨م.

٢ـ البيان والتبين، لأبي عثمان الجاحظ، عمرو بن بحر(ت٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، مصر، ط٧، ١٩٩٨م.

٣ـ تطور الغزل بين الجاهلية والإسلام، د. شكري فيصل، مطبعة جامعة دمشق، ١٩٥٩م.

٤ـ جمهرة النسب، لأبن الكلبي(ت ٢٠٤هـ) تحقيق: د. علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط١، ٢٠١٠م.

٥ـ جمهرة انساب العرب، لأبن حزام(ت٤٥٦هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط٥، ١٩٨٢م.

٦ـ الحيوان، لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(ت ٢٥٥هـ)، تحقيق: عبد السلام هارون، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٥م.

٧ـ دلالة الزمان في العربية، دراسة النسق الزمني للانفعال، د. عبدالمجيد جحفة، دار طوبقال للنشر،ط٢٠٠٦،١م.

٨ـ ديوان توبة بن الحمير، عني بتحقيقه وشرحه، د. خليل إبراهيم العطية، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

٩ـ ديوان شعراء بني عُقَيل وشعرهم في الجاهلية والإسلام حتى آخر العصر الأموي جمعاً وتحقيقاً ودراسة: الدكتور عبد العزيز بن محمد الفيصل، د. ط ، د.ت.

١٠ـ ديوان ليلى الأخيلية، جمع وتحقيق وشرح: خليل إبراهيم العطية، وجليل العطية، دار الجمهورية، بغداد، ط٢، ١٩٧٧م.

١١ـ الزمان في الفلسفة والعلم، د. يمتى طريف الخوري، الهيئة العامة للكتاب المصري، مصر، د. ط، ١٩٩٩م.

١٢ـ الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، د. صلاح عبد الحافظ، دار المعارف، بمصر، د. ط، ١٩٨٢م.

١٣ـ الزمن عند الشعراء العرب قبل الإسلام، عبد الإله الصائغ، دار الشؤون الثقافية، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، د. ط ١٩٨٦م.

١٤ـ صبح الاعشى، لأبي العباس القلقشندي(ت٨٢١هـ)، دار الكتب المصرية، القاهرة، د. ط، ١٩١٥م.

١٥ـ صورة المكان الفنية في شعر أحمد السقاف، بدر نايف الرشيدي، رسالة ماجستير، جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٢م.

١٦ـ فلسفة المكان في الشعر العربي، د. حبيب مؤنسي، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، د. ط، ٢٠٠١م.

١٧ـ قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان، لأبي العباس القلقشندي(٨٢١)، تحقيق: إبراهيم الابياري، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط٢، ١٩٨٢م،

١٨ـ محاضرات في تاريخ النقد عند العرب، ابتسام الصفار، ناصر حلاوي، منشورات العطار، ط١، ٢٠١٤م.

١٩ـ مفهوم الزمن في الفكر والأدب، رابح الأطرش، مجلة العلوم الإنسانية، جامعة فرحان عباس، مارس ٢٠٠٦م.

٢٠ـ نشوة الطرب في تاريخ جاهلية العرب، لأبن سعيد الأندلسي(ت٦٥٨هـ)، تحقيق: د. نصرت عبد الرحمن، مكتبة الاقصى، عمان، د. ط، ١٩٨٢م.